والقصة القصيرة جدا ... طالب عمران المعموري

عن دار ديوان العرب في مصر محافظة بور سعيد صدرت للقاص العراقي طالب عمران مجموعة قصصية (65) نصا قصصيا قصيرا والقصة القصيرة ظهرت منذ التسعينيات من القرن الماضي استجابة لمجموعة من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية المعقدة والمتشابكة التي أقلقت الإنسان وما تزال تقلقه وتزعجه ولا تتركه يشعر بقيمة الوقت بل وضيقّت عليه فسحة التأمل، ناهيك عن عامل السرعة الذي يستوجب قراءة النصوص القصيرة جدا والابتعاد عن كل ما يتخذ حجما كبيرا أو مسهبا في الطول كالقصة القصيرة والرواية والمقالة والدراسة والأبحاث الأكاديمية.

وبالتأكيد فإن القاص طالب هو جزء من هذا المجتمع الذي فقد استقراره ولذة الوقت وانشغل كثيرا بما يُلهي المتلقي بتعقيدات الحياة الجديدة الأمر الذي يدفع الأديب البحث عن وسيلة لإيصال رسالته ومن أقل الطرق وأقربها لنفسية القارئ.

وقد عملت متون هذه القصص رغم توقفها على بضعة أسطر على نقد ظواهر اجتماعية سادت في ظلّ الفوضى والاضطراب العام وفي كل شؤون الحياة.

يقول القاص:

«اعتاد ان يحكي له قصة قبل النوم، استرسل الطفل الصغير بحكايته، استغرق الاب في نوم عميق. ص13.

سطر واحد فقط ليس أكثر تضمن مغايرة وإدهاشا وحكمة وتضاد في آن واحد ولعل ما ذهب اليه جميل حمداوي في تحديد قواعد القصة القصيرة ينطبق تماما على المتن القصير المعبر عن حدث.

تستند المقاربة النقدية لفن القصة القصيرة جدا، أو ما يسمى كذلك بالمقاربة الميكروسردية، إلى عدة معايير ومقاييس نقدية، تنصب على الجوانب الدلالية والشكلية والبصرية. ويمثلها عربيا جميل حمداوي، ويشاركه في بذلك نسبيا أحمد جاسم الحسين، ويوسف وآخرين في هذه المقاربة الجديدة وتمييز الأركان والشروط والشروط، أو بين المكونات الداخلية والتقنيات والسمات الخارجية، أو بين العناصر البنيوية التي تميز فن القصة القصيرة جيدا، وتفرده عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

كما لم تجعل المرحلة المعاصرة المعروفة «بزمن العولمة» والاستثمارات والتنافس الإنسان الحالي ولاسيما المثقف منه مستقرا

في هدوئه وبطء وتيرة حياته، بل دفعته إلى السباق المادي والحضاري والفكري والإبداعي قصد إثبات وجوده والحصول على رزقه؛ مما أثر كل هذا على مستوى التلقي والتقبل والإقبال على طلب المعرفة، فانتشرت لذلك ظاهرة العزوف عن القراءة، وأصبح الكتاب يعاني من الكساد والركود لعدم إقبال الناس عليه، كما بدأت المكتبات الخاصة والعامة تشكو من الفراغ لغياب الراغبين في التعلم وطلبة القراءة والمحبين للعلم والثقافة.

وبناء على ما سبق، فقد حدد الدكتور أحمد جاسم الحسين مقومات القصة القصيرة جيدا في كتابه «القصة القصيرة جدا» وقال لها أربعة أركان أساسية هي: «القصصية، والجرأة، والوحدة، والتكثيف».

وفي المقتبس أعلاه نجد أن الركن الأول واضح جدا «ظاهرة الحكي للأطفال بغية النوم وهي ظاهرة سائدة منذ القدم».

الركن الثاني الجرأة: لا يتطلب المقتبس أعلاه جرأة لأنه يتحدث عن السائد .

الوحدة: والقصد هو وحدة الموضوع ولم يخرج القاص عن هذه القاعدة.

التكثيف: تمثل في استخدام استخدم ستة عشر مفردة مع الأدوات. وهذا يعني أن القواعد الأساسية للقصة القصيرة جدا منطبقة بحدود كبيرة.

وفي قصة أخرى مع اختلاف الموضوع يقول:

«قال في بيتي جنة، دعاني ذات مرة إلى بيته، ازددت فضولا لأرى جنته، كان بيته خاويا إلا من امرأة مسنة، كان يطعمها بيديه» ص16

الحكاية تتلخص ببر الأم «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ظاهر البيت خاوٍ إلا من عجوز: فهو يبر والدته فيطعمها بيديه وهذا منتهى السعادة لمن يعملن ملخص الحكاية «أن البرّ بالوالدة يقود إلى الجنة «درس بليغ من الدروس الوعظية الأخلاقية التي غادرها الناس في عصرنا تشكل هذه المفردات وخزة في عمق الضمير.

والحقيقة أن هذا الفن قد تبلور في دول الشام وبالضبط في سورية وفلسطين، ودول المغرب العربي وخاصة في المغرب وتونس على حد سواء.

كذلك تعرف القصة القصيرة جدا جنس أدبي حديث يمتاز بقصر الحجم والإيحاء المكثف والنزعة القصصية الموجزة والمقصدية الرمزية المباشرة وغير المباشرة، فضلا عن خاصية التلميح والاقتضاب والتجريب والنفس الجملي القصير الموسوم بالحركية والتوتر وتأزم المواقف والأحداث، بالإضافة إلى سمات الحذف والاختزال والإضمار. كما يتميز هذا الخطاب الفني الجديد بالتصوير البلاغي الذي يتجاوز السرد المباشر إلى ماهو بياني ومجازي ضمن بلاغة الانزياح والخرق الجمالي.

ورغم أننا بصدد استعراض تجربة القاص طالب التي اتسمت بالجرأة والتحدي القائم على الثقة بالنفس في وضع بصمة في هذا المجال رغم أن القاص إبراهيم أحمد منذ تسعينيات القرن الماضي لكن التجربة بقيت في نطاق ضيق ولم يهتم القاص العراقي بتطوير هذا الضرب من القص الذي يعد مجهول الهوية ولا يستوي الكثيرين ليس من ناحية التلقي وحسب بل من ناحية المنتج له رغم أن قواعده مختلف عليها .

فعن القاص والروائي العراقي هيثم بهنام بردى صدر كتاب يعالج فيه تاريخية هذا الجنس وتوثيق لمسيرة القصة القصيرة جداً في العراق منذ ثلاثينات القرن الماضي وهذا الرأي مغاير لما ذكرنا أنها ظهرت جليا في تسعينيات القرن الماضي وثمة آراء مختلفة .

ويؤكد بهنام في قوله «(القصة القصيرة جداً، قياساً إلى صنوها القصة القصيرة، فن جديد يربو عمره على القرن، وحاله حال أي فن استقبل عند ولادته بمشاعر شتى وتشكلت مواقف متباينة إزاءه) القصة القصيرة جدا، ص13. ثم يستعرض الأجيال القصصية ويبدأ بالريادة للقاص (نوئيل رسام) عندما نشر قصته (اليتيم) سنة 1931 وقصة (موت فقير) عام 1930 ويؤكد الناقد (باسم عبد الحميد حمودي) أن (نوئيل رسام) هو أول من ثبت على متن إحدى قصصه مصطلح (قصة قصيرة جداً)

والقصتين منشورتين في (ص50 – ص53) من الكتاب المشار اليه. ثم جاء القاص ابراهيم أحمد ليسلك منهج القصة القصيرة جدا فيبدع فيها وتوالت التجارب التي بقيت ضمن نطاق ضيق كما اسلفنا .

وعليه فإن القاص طالب طرق ذات الباب التي طرقت كثيرا وأمنياتنا أن تأخذ القصة القصيرة جدا طريقها لأذهان وذائقة المتلقين وتؤسس لجمهور بهذا المجال، وحقاً يبدو الإصرار والجدية لدى القاص في تجسيد هذا النوع من الحكي ويجعله مؤثرا بغية نقد بعض الظواهر التي كانت موضع اهتمام القاص يقول:

«دخل السوق الشعبي اجتمع إليه الناس بمظهره الجميل وقيافته الراقية، حوله حرسه الشخصي، نظر إليهم، تطلعوا إليه بأمل، تحدث نضح بما فيه «ص17

«العاشق الذي أحب بجنون، ابتليّ، جاد بنفسه وأولاده» ص18

«الرجل الذي قضى عمره سعيا وراء تحصيل العلوم المجردة، أصابه الزهو، أرجعه إلى رشده عبد ضعيف «ص40.

هو نقد لاذع لظواهر اجتماعية سلبية في معظم الأحيان، تنفتح على تأويلات عدة ولا يمكن الجزم بمراد القاص منها مهما اجتهد المتلقي يبقى المعنى نصفه أو كله في ذهنية القاص وحده .

وذهبت بعض القصص الى المنهج الوعظي الذي استهدف القاص من خلاله تقديم موعظة على طبق شفاف تماما يقول:

«ارتدت قميص الانتظار، أقسمت لن يفك أزراره سواه» ص56

«زرع البسمة في وجهه، حصد السعادة في قلوب الناس» ص56

«خلع إحرامه، ارتدى قميص الخلاعة «57

«استرقو السمع، لعنهم أهل السماء «ص60

وطائفة أخرى من المواعظ والحكم التي احتكم عليها القاص من رحلة الحياة متبنيا فكرة أن القليل ربما يشكل إصلاحا لمجتمع ينحدر نحو الرذيلة والتشرذم ولا طائل من كثرة السرد في آذان صماء .

وأخيرا أقول القصة القصيرة جداً في العراق اشتغل عليها كثيرون وفقا لأجيالهم والمنجزات الإبداعية بهذا الصدد كثيرة إلا أنها لم تأخذ حقها من الدراسات النقدية، أتمنى على المهتمين الالتفات إلى هذا الجنس الأدبي الرصين الذي ازعم أننا بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى .